إضاءة

تذكر فرانز فانون أو فهم ما يحدث في حالة الاستعمار

بلاغة المنكوبين

عُنفٌ «إسرائيل» مطلق، وبالتالي التعبير عنه من قبل الناس في فلسطين هو مطلق، بمعنى أنّه بليغ ويخرج عن سياق العادي في وصف مدى الدمار والترهيب الذي يمارسه النظام الاستعماري الصهيوني على الشعب الفلسطيني في أرضه المحتلة، نظامُ «سماجة الشّر» بامتياز

عاطف الشاعر

صوت امرأة من الشيخ جرّاح

بلاغة المنكوبين هي صوت المرأة الفلسطينية التي سُرق بيتها في حي الشيخ جرّاح، وحيث سلتْ نبيل الكرد، وهو الذي سُرق نصف بيته والمستهدف بأكمله من قبل الصهاينة المستوطنين في حي الشيخ جرّاح، وأنا أفكّر في بلاغة المنكوبين في التعبير عن نكبتهم. هنا بلاغة معبّرة ولاذعة من نوع خاص. إنّها بلاغة روح تعرف الحقيقة والحق كما لو أنّه نورٌ ساطعٌ يشرقُ وينفجرُ لوصف حالات المستوطنين الذين عرّضوه وعائلتهُ لمهانات لا توصفُ من أجل طردهم من بيتهم. كلّ هذا حتى يسطو ويعيش فيه رجل أميركي من عيار مفزع من الفجاجة، معترفاً لأمل الكرد، بنت نبيل الكرد، بأنّه «إذا لم يسرق هو نفسه البيت، فإنّ غيره سيسرقه».

تكاد قضيةُ فلسطين كلّها تلخّص في هذا الجملة. السارق والمجرم والكاذب والمخادع وغيرهم من الأصناف الوطيئة من البشر أمثال هؤلاء تعرف أنّها كذلك، فلا يستطيعون تجاوز العفن الذي تتغذى عليه أرواحهم بظلم الناس وترويعهم «والسلبطة» عليهم بوسائل وضيعة ودنيئة. الأخلاق عند هؤلاء الناس هي حقل قوة، لا مكان للفضائل والعقلانية والجمال والإنسانية، حسب الفلسفة اليونانية والإسلامية وفلسفات أخرى. أمثال هؤلاء الناس لا يمكن التفاوض معهم أو مهادنتهم والعيش معهم بسلام، لأنّ السلام نقيض لما جُبلوا عليه ولما تتكوّن منه شخصياتهم من عُنصريّة وظلم.

ما تريده المنظومة الاستعمارية

نظّر فرانتز فانون في كتابه «المعذبون في الأرض» لعنف ضحايا الاستعمار وتحدّث كيف أنّ العنف يتغلغل في شخصية الضحايا بحيثُ يلتحم فيها رغبةً في الانتقام من المحتل الذي فرض عليهم العنف بالأساس. العنف مطلق هنا. كما تحدّث عن الثقافة الوطنية وكيف أن المثقفين يلتحمون مع الشعب ومع المقاومين في أشعارهم وأغانيهم وكتاباتهم من أجل التعبئة وعكس حالة النضال ضدّ المحتل الغاشم. في الحالة الفلسطينية هناك ما يدلّل على كلّ ذلك، حيثُ إنّ الندبيّة جزءٌ متأصلٌ في ثقافة المقاومة.

يريدُ الاحتلال الإسرائيلي، والمنظومة الصهيونيّة الوحشيّة، من الفلسطينيين الاستسلام والتسليم له والقبول بقوانينه العنصريّة، ويريد الفلسطينيون العيش بكرامة وعزّة على أرضهم. وهكذا بين الطرفين لا يوجد منطقة توافق أو التقاء. لأن وحشيّة الاستعمار هي التي تمنع من هكذا نقطة التقاء. الالتقاء لا يمكن أن يحدث دون مساواة في العيش وكرامة للجميع، وهذا هو الحال في فلسطين. ومن هنا، فإن تعبير الناطق باسم كتائب القسام أبو عبيدة، والناطقين باسم فصائل أخرى للرد على القصف الإسرائيلي، «وإن عدتم عدنا» أو «وإن زدتم زدنا»، هو تعبير بليغ وموجز عن حالة الندبّة والشراسة التي تمتاز بها المقاومة أيضاً. عُنفُ «إسرائيل» مطلق، وبالتالي التعبير عنه من قبل الناس في فلسطين هو مطلق، بمعنى أنّه بليغ ويخرج عن سياق العادي في وصف مدى الدمار والترهيب الذي يمارسه النظام الاستعماري الصهيوني على الشعب الفلسطيني في أرضه المحتلة. الفلسطينيون يعيشون في أقاصي البلاغة لأن ما تفرضه عليهم هو غاية في القسوة والظلم.

يقول فرانتز فانون في كتابه (وهنا أترجم): «ولكن يحدث أنّه لمن هم تحت الاحتلال أنّ هذا العنف، ولأنّه يُمثّل شغلهم الشاغل، يضفي على شخصياتهم صفات إيجابية وإبداعيّة. ممارسة العنف يربط الناس ببعضهم البعض ككل لأنّ كل فرد يشكّل رابطاً عنيفاً في سلسلة العنف... الكفاح المسلح يُعبئ الناس، أي يُلقي بهم في اتجاه واحد، واتجاه واحد فقط».

ليس هنا احتفاءً بالعنف، ولكن من الضرورة فهم ما يحدث في حالة الاستعمار، بحيثُ تنعدم الخيارات ويصبحُ الخلاص من براثن المحتل الشغل الشاغل للجميع، وإن خفتَ صوتُ البنادق أحياناً.

> مشهد بحاجة إلى خلاص شامل، لا إلى مهادنة وتواطؤ
>
> بلاغة روح تعرفُ الحقيقةَ والحق كما لو أنّه نورٌ ساطعٌ

الحالة القصوى من التعبير

ومن هنا تُجسد فكرة ما قد نسميه «بلاغة المنكوبين» الحالة القصوى من التعبير عن المشهد الفلسطيني كمشهد بحاجة إلى خلاص شامل، لا إلى مهادنة وتواطؤ مع المحتل.

بلاغة المنكوبين هي صوت المرأة الفلسطينية التي سُرقَ بيتها في حي الشيخ جراح، وحين سألتْ عن المحاكم الإسرائيلية، قالت مستعينة بتراث الأمثال الشعبية الغني للغة العربية: «لمن تشكي والقاضي غريمك»، أي أن القضاة والمحاكم وعناصر الحكم كلها في «إسرائيل» قائمة على النهب والسلب وظلم الفلسطينيين، وبالتالي من العبث توقّع العدالة من أمثال هذه المؤسسات الاستعمارية وموظفيها.

ومن هنا فإنّ المنظومة الصهيونيّة وعُمَلَاءها ينطبق عليهم وصف حنا إرندت في تعبيرها البليغ «سماجة الشر»، حين كانت تتحدث عن النازية في ألمانيا، حيث إنّ القائمين عليها من قادة وجنود ومؤسسات يؤدون وظائف عادية ببروقراطية تُكوّن ما تسميه حالة «سماجة الشر»، أي اعتياديّه الظلم والشر في أعمالهم وحياتهم.

صحيح أن هناك أفراداً ومنظمات داخل المجتمع الاستعماري صادقون، في نيتهم العيش والتعايش، وبينهم أناس شجعان، ولكنهم أقليّة في داخل المنظومة الصهيونية المتغطرسة، ومع هذا لا بدّ من أخذهم بالاعتبار على طريق تحرير فلسطين الشاق، وتحرير جميع البشر الموجودين على الأرض هناك من الاستعمار والعدوانية بالدرجة الأولى.

بلاغة المنكوبين فكرة عن أصحاب حق وحقائق يعيشونها ويعرفونها ويعبّرون عنها بصور وتعابير تعكس حجم الظلم والجبروت الواقع عليهم. هؤلاء لا يقلون أهميّة عن أولئك الكُتاب والكاتبات الفلسطينيين وغيرهم، الذين وَصفوا ببلاغة فصيحة مأساة فلسطين منذ وقوعها حتى الآن.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

امرأة من الشيخ جرّاح تتصدى لمستوطن صهيوني، 10 أيار/مايو الجاري (Getty)

معرض

لطفي بلهوشات تونس قبل اثني عشر ألف عام

قصّة الحضارة القبصية

أضاءت المحاضرة، التي ألقاها الباحث التونسي افتراضياً يوم الثلاثاء الماضي، على حضارات العصر الهولوسيني التي قامت في تونس وجوارها

تونس ـ **ليلى بن صالح**

يفترض العديد من علماء التاريخ والأنثروبولوجيا أن كشوفات عصر ما قبل التاريخ تستدعي تغيير النظرة التي كرّسها الغرب حول الحداثة بوصفها منتجاً أوروبياً، إذ إن «الحداثة السلوكية» هي وصف دقيق لتطوّر الفنون لدى الإنسان الأول، خاصة في ما تركه من نقوش وطريقة في تزيين جسده.

مسألة ألقى الضوء عليها الباحث التونسي لطفي بلهوشات في محاضرته الافتراضية «الحضارة القبصية: عصر الفن والإبداع»، التي نظّمتها «وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية» في تونس العاصمة الثلاثاء الماضي، وتحدّث خلالها عن الأوابد التي تعود إلى أكثر من عشرة آلاف سنة، ولا تزال شواهد منها موجودة بالقرب من مدينة قفصة التونسية.

توقّف المحاضر عند عام 1875 مع العثور على أولى اللقى على يد عالم الآثار جوزيبي بيلوتشي الذي قام ببعثة تنقيب في الجنوب التونسي، وكانت قطعاً من الصوّان، وصولاً إلى سنة 1909 حيث تخلّق وعي حيال تلك الحقبة التاريخية، إذ سمّى الأركيولوجي جاك دي مورغان ما وجده من شواهد بـ«الحضارة القبصية»، وأبرزَ ميزاتها في سلسلة مقالات نشرها آنذاك، إلى جانب دراسة أصدرها إرنست فوستاف غوبيرت حول موقع المطلع شمال مدينة قفصة.

وفي مرحلة لاحقة، وضع عددٌ باحثين فرضيات حول ظهور هذه الحضارة ونشأتها والتغيرات التي طرأت عليها حتى العصر الحجري القديم، ما أدى إلى تصنيفها ضمن مجموعة تفرّعات بحسب تسلسلها الزمني تعمّقت حولها الأبحاث والنظريات في مرحلة ثالثة، لتُمهّد إلى دراسات متعدّدة التخصّصات بيّنت الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والتقنية والفنية للقبصيين، والتي تتواصل حتى اليوم.

وأوضح بلهوشات أن الحضارة القبصية قامت في شرق الجزائر وتونس خلال العصر الهولوسيني الذي تميّز بمناخ أكثر رطوبة، وساعد في انتشار الغابات بعد أن ساد مناخ جليدي قاس جداً في الفترات السابقة، وساهمت هذه الظروف المناخية في استقرار مجموعات بشرية وتوزّعها في مناطق مختلفة من شمال المغرب الكبير.

ووفق الدراسات الحديثة حول آخر الاكتشافات، والقراءات الجديدة للاكتشافات القديمة، فقد تأسست الحضارة القبصية السفلى أو النمطية في جنوب ووسط تونس خلال الألف العاشر قبل الميلاد، قبل قيام الحضارة العليا على الساحل خاصة في مدينة هرقلة وبعض مدن الداخل بدءاً من منتصف الألف الثامن قبل الميلاد وحتى منتصف الألف السابع قبل الميلاد؛ حيث تمدّد القبصيون في استقرارهم وبدأوا في تدجين الحيوانات، وتطورت صناعتهم للأدوات العظمية التي تشبه ما أنتجته حضارات العصر الحجري الحديث.

اعتمد الإنسان القبصي على الصيد بشكل أساسي لحيوانات الثيران والغزلان إلى الأرانب البرية التي عاشت في غاباتهم، بحسب بلهوشات، موضحاً أنه استخدم الحجارة التي صقلها لصناعة السهام، والتي وثّقتها النقوش المكتشفة، حيث تظهر القوس في يديه وإلى جواره حيوانات تبدو مدجّنة وليست برّية، ومنها الخرفان والماعز، كما جمع الثمار وخاصة من شجرة الصنوبر الحلبي وكان يخزّنها في أماكن محدّدة لا تزال تُستخدم للّيوم في طبخ عصيدة منها في بعض المناطق التونسية، وكذلك للحلزونيات التي اقتات عليها.

> اكتُشفت آثار القبصيين في الجنوب التونسي عام 1875

ولفت إلى امتلاك الحضارة القبصية العديد من الأدوات وفق نشاطاتهم المتعدّدة، ما يدل على وجود مجتمع معقّد في بنائه، مثل الأواني الفخارية من قدور وقوارير كان يوضع فيها اللحم، كما منحت معتقداتُه قيمة خاصة للمدافن من مظاهرها بروز طقوس جنائزية توحي بإيمانه بوجود حياة بعد الموت، وأيضاً احترامه لكائنات معينة كالنعام الذي حاز مرتبة القداسة، إذ لم يكن يتناوله في طعامه، واستُعملت قشور بيض النعامة في صناعة الأواني في قوارير بيضوية الشكل وكؤوس وأكواب وصحون.

كهوف استُعملت في الحضارة القبصية بالقرب من بلدة السند جنوب غرب تونس

متابعة

نصوص لا تحظّ معضلة سوق الكتاب

الجزائر بوصفها جزيرة

لم تتضمّن مشاريع المراسيم التنفيذية، التي قدّمتها وزارة الثقافة الجزائرية مؤخّراً، أية إشارة إلى مشكلة عدم وصول الكتاب الأجنبي إلى البلاد

الجزائر ـ **مليكة ياسين**

لا يزالُ قطاع الكتاب في الجزائر يعيش اختلالاتٍ كثيرة؛ أبرزُها مشاكل توزيع الكُتب التي تحول دون وصولها إلى القرّاء في مختلف مناطق البلاد التي يُحتُّ كثيرون وصفها بالقارّة، بالنظر إلى مساحتها التي تجعل منها البلد الأكبر أفريقياً والحادي عشر عالمياً.

غير أنّ مشكلة التوزيع لا ترتبط بالمساحة الكبيرة فحسب؛ فالكُتب التي تصدر عن دور نشر محلّية قليلاً ما تُوزّع حتى في الجزائر العاصمة وما جاورها من مُدن، وهذا يُحيلنا إلى مشكلةٍ أخرى تتعلّق بنقص المكتبات في المدن الجزائرية، خصوصاً مع إغلاق عددٍ منها، وتحوّل البعض الآخر إلى نشاطات تجارية أخرى. تبدو أزمةُ الكتاب في الجزائر أشبه بسلسلةٍ مترابطة تقودنا كلّ حلقةٍ منها إلى أخرى.

إحدى تلك الحلقات هي الدعم الماليُّ الذي ظلّت الدولة تُقدّمه لدور النشر على مدار السنوات الماضية. وبدل أن يُؤدّي ذلك إلى إنعاش سوق الكتاب وتوفير أعمال جيّدة للقرّاء، حدث العكس تماماً: انتكس سوقُ الكتاب، ولم تعُد مسألة المضامين أو إيصالُ الكتاب إلى القرّاء تشغل الناشرين كثيراً، بما أنّ الدولة تدفعُ مقابلاً مُجزياً عن كتبهم التي تذهب من المطابع إلى المخازن رأساً.

خلال اجتماع الحكومة الجزائرية، يوم الثلاثاء الماضي، قدّمت وزيرة الثقافة مليكة بن دودة عرضاً تضمّن، بحسب بيانٍ للوزارة الأولى، أربعة مشاريع مراسيم تنفيذية تتعلّق بسوق الكتاب: أوّلُها «كيفيات توزيع الطلب العمومي للكتاب»، والذي يهدف إلى وضع إطارٍ تنظيمي لاقتناء الكتب من قبل هيئات ومؤسّسات رسمية.

أمّا النّصُّ القانوني الثاني، فيتعلّق بـ«دعم الدولة إيصال الكتب بنفس السعر الموحّد إلى المناطق البعيدة»؛ حيثُ يُحدّد كيفيات دعم الدولة إيصال الكتب إلى المناطق البعيدة عن المركز/ العاصمة، ضمن مبدأ «السعر الموحّد للكتاب» في كل مناطق البلاد.

ويُحدّد مرسوم المشروع التنفيذي الثالث كيفيات منح الترخيص المسبّق لتنظيم التظاهُرات المتعلّقة بالكتاب الموجّه إلى الجمهور، في حين يُحدّد النصُّ الرابع شروط وكيفيات منح علامة الجودة لدور نشر الكتاب ومكتبات بيع الكتب وكيفية سحبها.

هل من شأن مشاريع هذه القوانين إحداثُ اختراق حقيقي في مجال الكتاب بالجزائر؟ على الأرجح لا؛ ذلك أنّ هذه النصوص لا تُحيط بالمشكلة من جميع جوانبها. صحيحٌ، مثلاً، أنّ توفير الكتب بسعرٍ موحّد في جميع مناطق البلاد يُمثّل شكلاً من أشكال العدالة الاجتماعية، لكنّ المشروع يتجاهل أنّ الكتاب لا يصلُ إلى المناطق «القريبة» أيضاً لأسبابٍ كثيرة. أمّا «علامة الجودة»، فتبدو بمثابة رفاهية في ظلّ الوضع الراهن.

إحدى المشكلات الحقيقية التي لم تُقدّم وزارة الثقافة مشروع نصّ قانوني لتدارُكها هي عدم وصول الكتاب الأجنبي (الذي يصدر خارج الجزائر ومنه الكتاب العربي) إلى البلاد، إلّا في مناسبة يتيمة هي «المعرض الدولي للكتاب»، ما نخشاه أنّ ثمّة رغبة في إبقاء الجزائر جزيرةً منعزلة لا يصل إليها ما يصدُر من كُتبٍ في محيطها العربي، وفي العالم.

> لا تُحيط مشاريع النصوص القانونية بمشكلة الكتاب من جميع جوانبها

من دورة سابقة من «معرض الجزائر الدولي للكتاب»

فعاليات

ينطلق، الخميس المقبل، معرضُ **صُنع رودان** في غاليري «تيت مودرن» بلندن، والذي يتواصل حتى الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل. يضمّ المعرض منتَج عمل للنحات الفرنسي **اوغست رودان** (1840 - 1917) المصنوعة من البرونز والرخام و تُبرز اسلوبه في كسر القواعد المثالية الكلاسيكية في النحت.

ينظّم «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، يوم الاربعاء المقبل، حلقة جديدة من **سيمنار التحوّل الديمقراطي** بعنوان «احتجاجات ثورة تشرين الاول/ اكتوبر 2019 في العراق». يشارك في الحلقة، التي تُقام عن بعد، كل من: **إيهاب شغيدل**، و**ثابت عامر**، و**حسين الغرابي**، و**روان سالم**، و**حسين محمود**، و**عباس التميمي**، و**فارس حزام**، و**نور جمال**، و**ياسر مكي**، فيما يدير الحوار **حيدر سعيد**.

اعلن «معهد تونس للترجمة»، مؤخرا، عن إعادة إطلاق مجلّته العلمية المحكّمة **ميزان الترجمة**، ودعا الباحثين الى تقديم اعمالهم للنشر. تهتم المجلّة بمراجعة الاعمال مترجمة من العربية واليها ضمن الحقول المعرفية التي يشتغل ضمنها المعهد؛ مثل الفلسفة والعلوم الاجتماعية و ترجمة الادب العربي إلى اللغات الاوروبية.

عبر منصة «كونفيرنسيا»، تلقي الباحثة الفرنسية **صوفي غايو** - ميكزا محاضرة بعنوان **الحكاية العجيبة لموتسارت الصغير** بداية من الرابعة والنصف من بعد ظهر يوم غد الإثنين. تدرس المحاضرة السنوات الخمس الاولى من حياة الموسيقار النمساوي، وكيف لمع في المجتمع الارستقراطي بسبب موهبته المبكّرة.